القصص

جاسوسة !

« Elle est de la police »

لمدير الأكاديمية الفرنسية هنري بردو

ترجمة الأستاذ عبد الحليم الجندي المحامي

لم يبق لمدام (سرمزيل) أمل في أن تُحَب ، فأصبحت لا تطيق أن ترى قلبين يتناجيان

* * *

فلقد ودعت المسكينة جمالها إثر حادث سيارة ، وعمل الجراح في وجنتيها خير ما هيأت له عبقرية الطب ، ورسم أنفها الدقيق رسمه الأنيق السابق ، لكن الفن والطب معاً قصرا عن أن يمسحا من صفحة وجهها تلك الشيات المهينة التي ما برحت تشير إلى الحادث . . فمنها التي لم يجسر الطبيب على أن يدنو منها قد اتسعت بعض الاتساع فصارت نظراتها مما يتجمد له الدم في العروق . . وعشيقها الذي حنا عليها في محنتها وسربلها بصنيعه لم يستطع تلقاء هذا (البعث الناقص) إلا أن يطلب نقله إلى وظيفة نائية ! . . . ولا يصبر على القبح الجسماني إلا رجل سمت به فضيلته إلى أرفع ذروة ، أو رجل يغمر الايمان فؤاده . . والصديق العزيز لم يكن إلى هؤلاء ولا الى هؤلاء . . .

كانت ما تزال تدعى إلى الأوساط التي كانت تغشاها من قبل ، لما عرف عنها من الملاحظة اللاذعة والروح المبتكر . . وفي ابان هذه الدعوات شهدت — وهي تكاد تُجن — ميلاً يبديه المسيو (ريانس) إلى (المدام دى نيج) وكان الداعون والداعيات يغطنون الى هذا الهوى الناشئ فيجعلون كرسيّ كل منهما إلى كرسي الآخر . . وهكذا في كنف تلك التقاليد التي تواضعت عليها الارستقراطية المعاصرة (!) تآمرت كل الظروف على أن يترعرع هواهما الوليد في هوائها الطلق الصافي

كانت مدام دى نيج مشغولة بزخرفها مشغوفة بنجاحها في ذلك الوسط الرفيع الذي كانت تتأرجح كالقمري الغريد فوق أفنانه ، وكان زوجها منكباً على وجهه في عالم السياسة لا يجد الساعات التي يمنحها فيها الحنان أو يهبها فيها الحب . أما المسيو (ريانس) فقد وفد حديثاً من الريف . . ومعه ثروة الأقاليم وملاحة التبسط وقسمات بديعة كلها اغراء ، لكنه كان يضيف إلى تلك المؤهلات جهلاً تاماً بفن (الرجال مع النساء)

وذات يوم وقع خطأ في (بطاقة الاسم) فجاء كرسي مدام سرمزيل بدلاً من كرسي مدام دى نيج بجوار المسيو ريانس ، فتنمت الصديقة بمجلسها النائي وأخذت تبعث إلى صديقها من أقصى المائدة شعاعاً كله الكهرباء . . . فتطلعت (سرمزيل) فوقع بصرها على ذلك التيار الذي يروح ويجيء بين القلبين فهمست في أذن جارها تقول :

— حقاً إنها جميلة . . وسكت ريانس ، فعادت تقول :

— ولكن يا للخسارة ! قال أي خسارة ؟ قالت ألا تعرف ؟ قال أي شيء أعرف ؟

قالت إنها « في خدمة البوليس » ! ! قال : « إنك تمزحين يا مدام » قالت كيف أمزح ؟ أو لم تقرأ كتاب (فوشيه) الذي قبلته الأكاديمية أخيراً ؟ وحسبها قد أخذت بطرف من الحديث جديد ، فقال كلا لم أقرأه ، فاستطردت الجارة تقول : (هو مؤلف من جزءين ، وإن المرء ليتعلم منه أشياء كثيرة وفيه تفاصيل عن نظام الجاسوسية في عهد الامبراطور ... كان في خدمتها سيدات من الطبقة الراقية . . جوزفين نفسها كانت جاسوسة في عهد الديركتوار (حكومة الادارة) !!! وفي العصر الحاضر سيدات كثيرات من ذلك الطراز تجرى عليهن الوزارة أجوراً لبطلنها على فضائح المعارضة كيما تخضع المعارضة للوزراء . . .)

— ولـكن كيف عرفت هذا يا مدام ؟

— لا . لا . . . لن أبوح لك بمصادرى . . وحسبك أنى أخبرتك

— إذن فهل تسمحين لى بألا أصدق ؟

— ولِمَ لا أسمح لك ؛ ليس المرء مكلفاً بأن يصدق كل ما يُلقى اليه ، لـكن عليه — على الأقل — أن يفتح عينيه

وتنقـلا فى شجون شتى وشؤون متشابهة ، حتى إذا فرغ الطاعمون ونهضوا انتبذ من القاعة مكاناً قصياً وبقى فيه . . . . فلم يكن بد من أن تسعى اليه مدام دنيج تسأله ما ذا دهاه ؟ فأجابها : لا شىء ، وأراد أن يُبدى لها بعضاً مما كان يُبدى من تحاياه أو من فيوض هواه . . . فـكانت دعابته شوهاء ، وحديثه بلا روح

وتعاقبت الأيام وهبط البارومتر ، وهدأ التيار ، وعملت مدام دى نيج جاهدة لتظهر عدم الاكتراث بما يظهره هو من عدم الاكتراث ، ثم جمعت كل ما منحتها السماء من فتون الأنوثة وخلاعة الاغراء ووجهتهما عليـه جميعاً كالتيار الدافق ؛ فلم يُلق اليها بالاً . . . ولما غلبها بأسه غلبها يأسها ، فشاهت فى وجهها الحياة

لـكن الاعجاب الذى مال بكل منهما إلى الآخر ، والذى تنضح به غريزة كامنة فى أعماقنا جميعاً — غريزة تلك الميول المستعدة لأن تصبح حباً جارفاً عندما تقاوم — هذا الاعجاب جعلهما أوثق اتصالاً كلما حاولا الانفصال . فأخـذ الرجل يسائل نفسه : ما علة هذا الجفاء ، وكيف يؤمن بالسيدة سرمزل مع أن الملأ طراً قد وصموها بأن الحقد يفرى كبدها من سعادة السمداء ؛ وتملكه الريب فيما ألقت اليه ... لـكن الـكلام كان كالسهم قد نفذ فاستقر فى أعماقه ... وإذن فليس يمكن أن يعلق فؤاده بغرام جاسوسـة ... وشرع يزين لنفسه أشياء ويقبح أشياء ... وأخذ يقول لنفسه ما يقوله كل ريفى هبط حديثاً إلى العاصمة : « لا ، لا يمكن أن تستغفلنى باريس ! » . بلى : فمن أين لها هذه الفراء الفارهة ، وهذه اليواقيت ، وكل تلك الأعلاق ! وراح يحقق أثمـان ما يقتنيه الحسان من نفائس ومجوهرات ؛ فلمـا أدركه التعب أخذ يقول لنفســـه : « أو لست أنا الذى أصبحت جاسوساً ؟ ! »

وغدا المسكين نهباً مقسما بين الشك والقلق المساور ، وغاض من كيانه معين الشباب وصرح الفتوة اللذان إذا أحدقا بغانية سدا فى وجهها الأفق ولم يتركا لها منهما منفذا إلا كما تترك خروق (الشبكة) الضيقة للفراش الرشيق

أما هى فقد ذهبت جهودها كلها بددا ، فعـكفت على قلبها تتسمع خفقاته وتستعذب فيه لذع الحريق

وذات يوم سمعته يخبر الأصدقاء بأنه مسافر ، فلم تتمالك نفسها وسألته : الى أين ؟ فأجابها بتحفظ : (عندى)

— أين عندك ؟

— فى جكس

— قريباً من جنيف ؟ فأجابها فى سخرية لاذعة :

— هنيئاً للجغرافيا بكعبك العالى يامدام ! . وأنت الى أين ؟ قالت إننى لم أعتزم بعد أمرا . . وهذا يتوقف عنـدى على أشياء كثيرة

فكرّ على عقبيه ورجع يقول لنفسه : أشياء كثيرة ! طبعا .. طبعا ! ومن يدرى فهى (مأموريات كثيرة) من يدرى أيضاً ... لا . لا . يجب أن أغادر الديار وأفلت من قبضتها . . . . وظل يأتمر بها مع نفسه وانتهى بأن قال (ستحسبنى رحلت فلأراقبنها إذن ... لأراقبنها أنا)

* * *

وتتلمـذ حينا من الدهر على (شرلوك هولمز) وأتاحت له الظروف فرصاً باهرة . . .

ما هـذا : إنها فى السيارة والسيارة تنهب الأرض نهباً إلى (المحافظة) ! . . . الله ! الله ! . . . إن السـيارة تطير بها إلى الوزارة ! . . وزارة الداخلية ! ! الله أكبر ! ما كان أصدقك يامدام سر مزل ! ! . . ما هذا أيضاً : إن السيدة لم تنتظر فى غرفة الانتظار . بل انفتح لها رتاج الوزير فور الساعة ! ! . . . لا . لا ، إنها ذات عهد بتلك المعاهد بلا مراء . . يا لله ! . . ماذا كان مصيره لو هوى فى ذلك الشرك . . ولو لم توح السماء إلى الناس فيخطئوا مرة واحدة ويضعوا بجانبه (المنقذة سر مزل)

وهكذا بعد أن اطلع عليها ولى فراراً وملىء منها رعباً

وكان قصره فى الريف يشرف على عتبات جنيف ! وكان اتصال البلد الذى هو فيه بالبلد الذى فيه عصبة الأمم يُسبغ عليه من جو الدبلوماسية ومن مراسيمها ، وكانت أول دعوة وجهت اليه دعوة المركيزة « دى بريل » وهناك . . . هناك . . ماذا . . ! هنا ألفى نفسه وجهاً لوجه أمام من ؟ أمام المدام دى نيج نفسها . . بلى ، إنها هنالك تقتفى آثاره فيمن تقتفى آثارهم ، ما فى ذلك ريب ، ولم يكن بد من أن يتحدثا فتحادثا

— أنت هنا يا مدام ؟ أية مصادفة ! أية مصادفة ! . فحدقت فى عينيه ، وكان جَلَدها قد وهى ، بل كان قد انتهى ، وقالت :

— لا ليست مصادفة . ألم تقل لى إنك قادم إلى جكس ؟ قال :

— كم أنت ظريفة يا مدام ! وأظنك لهذا جئت إلى جنيف ؟

وشرع يتهكم فجذبته بقوة وقالت :

— لا تسخر منى وقل لى هنا . . هنا على الأقل . . لماذا كنت تتخلص منى ؟ وحارت الدموع فى مآقيها كالسحاب عند ما يتجمع فى زوايا السماء الصافية . فجرؤ صاحبنا وتشجع وقال : بل أجيبى أنت

س : ماذا كنت تصنعين فى المحافظة فى ١٠ يوليو ؟

ج : فى ١٠ يوليو ؟ . . دعنى قليلاً أفكر . . فى ١٠ يوليو ذهبت إلى المحافظة أبحث عن جواز سفر إلى جنيف . . لأحضر إلى هنا . . قريباً منك

س : وفى نفس اليوم بوزارة الداخلية ؟

ج : كنت أعرف الوزير فقصدت إليه أطلب تصريحاً بزيارة عصبة الأمم . وقالت « لكأنك قد تجسست على » ... « إنك إذن من رجال البوليس »

قال : كلا ياسيدتى ، لست أنا ... ومسح جبينه وهو يتفصد عرقا ، وأضاف : ولا أنت أيضا

— إذن هل قال لك أحد شيئاً ؟ أوَ صدقت الذى قيل ؟

ولم يكن يقيله من عثرته إلا أن يقول — كالشهود — الحق ، وكل الحق ، قال : (مدام سِرْ مِنزِل) فتنهدت الحسناء وقالت : « أتصدق تلك الفرية فتلوث هذه التى كنتَ ... التى كنتَ . »

— التى كنت أحبها ، وما زلت أحبها كثيرا ، كثيراً جدا ، جدا ، أما هى فلن يتفتح لى قلبها أبدا ...

* * *

أفرَخ روع المدام دى نيج ، وشاعت فى وجهها نضرة النعيم ، وتمشيا معاً فى ممر يعطره أرج الربيع ، لكأنهما الفكرة البديعة تروح وتغدو فى خيال الشاعر . قالت : أرأيت إلى هذا الكم الذى لم يتفتح بعدُ عن الزهرة ! انظر ماذا فعلت بى ... لقد لوثتنى ؛ فهل أهبك بعد هذا قلبى ؟ خذ هذا الكم ذكرى من ذكرياتى ... لقد وقع ولكن أثره ما يزال

فأخذ الكم بقوة كأنه ينزعه وقال : « وإذا أنا طهرته بفمى من هذا الأثر أتغفرين لى ؟ » ثم قضم بأسنانه لفائفه فبدا الطلع من ثناياها وضيئاً مشرقا . قال : « أما الزهرة ياسيدتى فلم تمس بسوء . فهلا تغفرين ؟ » وازدحم الدمع فى موقيه كطفل غرير ، وتطلع اليها كأنه يلتمس منها أن تهبه الحياة ، فأطرقت فى دلّ وخَفَرَ وقالت : « أما الزهرة فانها لك » ثم عادت لتقول : « لكن عليك أن تغسل شفتيك قبل أن تقبلنى »

هنرى بردو

طبعة جديدة منقحة من كتاب :

الأنيس المطرب بروض القرطاس

فى تاريخ ملوك الغرب ومدينة فاس

تصـــدرها

شركة النشر المغربية

فى ثلاثة أجزاء

تعاليق تضاعف حجم الكتاب — مقابلات مع عدة نسخ مخطوطة ومطبوعة — ضبط الأعلام — زيادات الخ

الجزء الأول فى ٢٠٠ صفحة يصدر فى ٢٥ مايو

ثمن الجزء ١٠ قروش صاغ عدا أجرة البريد

المخابرات مع مندوب الشركة سعيد حجى

سلا (المغرب) Salé (Maroc)